

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يبدأ العصر الحديث للأدب العربي في مصر - بل للتاريخ المصري كله - بتلك السنوات التي شهدت خروج البلاد من ظلمات العصر التركي ، لتفتح عيونها على نور الحضارة الحديثة ، ولتأخذ طريقها في موكب المدنية المتقدمة . وذلك بعد أن أغمضت عيونها عن النور ، وعوقت خطاها عن السير زهاء ثلاثة قرون ؛ هي مدة الحكم التركي الكريه .

ومن الممكن تحديد تلك البداية ، بسنوات الحملة الفرنسية (من سنة ١٧٩٨ م إلى ١٨٠١ م) أى بأواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر . وليس ذلك باعتبار الحملة الفرنسية خيراً أسدى إلى مصر ، بل باعتبارها عملاً عدوانياً مدبراً ، أثار في مصر ما كمن من عناصر القوة . فقد اتخذت الحملة الفرنسية من العلم أسلحة ضمن أسلحتها ، ومن العلماء جنداً في عداد جندها . ومن هنا رأى المصريون في تلك الحملة علماً غير ما يعرفون ، وعلماء غير ما يعهدون ، وأدركوا خطورة ذلك كله عليهم إن لم يكن لهم مثله . فنتقلوا إلى نور الحضارة الحديثة ، وبدءوا التأهب للسير في موكب المدنية المتقدمة . وهكذا كانت تلك الحملة تنبيهاً غير مقصود لعناصر القوة في الشعب المصري العظيم ، تماماً كما تنبه عناصر المقاومة في جسم الكائن الحي ، حين يتسلل إلى دمه مكروب يريد أن يفتك به ، فيتسلح الجسد بما فيه من قوى كامنة ، ويقاوم بما احتفظ به من حيوية محجبة ، وحينئذ قد يكسب مناعة أقوى مع الزمن ، وصحة أتم على الأيام .

وقد تعاقبت السنون منذ تلك البداية. إلى عهدنا الحاضر ، ومر الأدب - والتاريخ المصري كله - بفترات مختلفة ، لكل منها طابع خاص .

ولذا يحسن أن يقسم هذا العصر الحديث الطويل ، الذى يبلغ نحو قرن وثلاثين قرن ، إلى فتراته المختلفة ، التى يتميز كل منها - إلى حد كبير - بطابعه السياسى والاجتماعى والثقافى ، ثم بطابعه الأدبى ، نتيجة لذلك كله . وبهذا يتيسر المدرس ، ويكون أقرب إلى الدقة . وتلك الفترات هى :

الفترة الأولى : من الحملة الفرنسية إلى ولاية إسماعيل (من ١٧٩٨ إلى ١٨٦٣) .

الفترة الثانية : من ولاية إسماعيل إلى الثورة العربية (من ١٨٦٣ إلى ١٨٨٢) .

الفترة الثالثة : من الاحتلال البريطانى إلى نهاية ثورة ١٩ (من ١٨٨٢ إلى ١٩٢٢) .

الفترة الرابعة : فترة ما بين الحربين (من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٩) .

الفترة الخامسة : من الحرب العالمية الثانية إلى قيام ثورة ٢٣ يولية (من ١٩٣٩ إلى ١٩٥٢) .

الفترة السادسة : من قيام الثورة إلى اليوم (من ١٩٥٢ إلى اليوم) .
 وإذا تأملنا الفترة التى نعيشها اليوم ، وقارناها بما نعرف من تاريخ الفترات السابقة ، وجدنا الاختلاف يصل أحياناً إلى درجة التباين أو التناقض ، وخاصة إذا كانت المقارنة بين اليوم والأمس البعيد . وهذا من شأنه أن يثير تساؤلاً معقولاً ، وهو : كيف يمكن أن يتدرج مثل هذا التاريخ الطويل المختلف الفترات تحت عصر واحد ؟ وكيف يمكن مثلاً أن يسمى كلٌّ من نتاج أوائل القرن التاسع عشر ونتاج الثلث الأخير من القرن العشرين « بالأدب الحديث » مع ما بينهما من خلاف لنس أقل من الخلاف بين القديم والحديث ؟

والجواب أن القديم والحديث من الأمور النسبية ، فإلى هو حديث اليوم ، وسوف يكون قديماً فى الغد ، وما هو قديم اليوم ، قد كان حديثاً بالأمس . وكل ما فى الأمر أن تاريخنا الأدبى مرتبط بتاريخنا السياسى ، وقد اصططح

على تسمية ذلك العصر الذى سلف تحديده « بالعصر الحديث » رغم أن أوائله أوشكت أن تفقد صفة الحداثة . . وإذن فهو عصر حديث ، لأنه يقابل ما كان من عصور قديمة ، ثم لأنه العصر الذى بدأ فيه فوجلاً ما يسمى بتاريخ مصر الحديث ، وأخيراً لأنه منذ بدايته يخالف فى وضوح هذا التخلف المؤلم الذى فرض على الشعب المصرى من قبل ، خلال العهد التركى .

ومهما يكن من أمر ، فالمهم ليس الاسم ، وإنما هو الدرس ، وما دام أساس الدرس هو التمييز بين فترات ذلك العصر ، وتحديد سمات كل فترة وخصائص أدبها ، فهذا يكفى .

وسوف أتناول فى هذا الكتاب الذى بين يدي القارئ « تطور الأدب الحديث فى مصر » من أول هذا العصر الحديث إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ، أى خلال أربع فترات من هذه التى تؤلف هذا العصر . وقد اتخذت من الحرب العالمية الثانية نقطة انتهاء لهذا الكتاب ؛ لأنها - فى رأى - بداية مرحلة جديدة فى الحياة الفكرية والأدبية ؛ فى سنواتها عُرِف كثير مما كان مجهولاً عن الاشتراكية وفكرها وأدبها ، وفى أعقابها أخذ الانجاء الواقعى الاشتراكى يجذب طائفة من المفكرين والأدباء المصريين . وهكذا لم يعد الفكر والأدب الغربيان ينفردان بالتأثير كما كان الحال قبل تلك الحرب ، وإنما ظهر مؤثر جديد له قوته وفعالته مما سيتضح بجلاء فى الأدب المصرى بعد تلك الحرب . كل ذلك بالإضافة إلى ما وفد من مذاهب واتجاهات من الغرب ، وما نشأ من قيم وأفكار منذ تلك الحرب ، التى غيرت الكثير من المقررات والمواضعات ، الأمر الذى يجعل منها نقطة انتهاء لعصر ونقطة ابتداء لعصر جديد ؟

وسوف أحاول أن أعرض فى هذا الكتاب لكل الأنواع الأدبية التى عاشت خلال كل فترة ، وأن أتبع كل نوع فى تطوره من فترة إلى أخرى وذلك من خلال المؤثرات العامة التى وجهت الأدب كله ، ثم من خلال العوامل

الخاصة التي أسهمت في تشكيل كل نوع أدبي على حدة .

و نظراً لوفرة النتاج القصصي والمسرحي في فترة ما بين الحربين ، قد خصصت له كتاباً مستقلاً هو في الواقع مكمل لهذا الكتاب . وقد عرضت في الكتاب الثاني هذا النتاج عرضاً نقدياً يأخذ حقه من التفصيل ، بجانب ما اشتمل عليه هذا الكتاب الأول من عرض تاريخي قصت الضرورة أن يكون على شيء من الإجمال . وهذا الكتاب الثاني هو « الأدب القصصي والمسرحي - من أعقاب ثورة ١٩ إلى قيام الحرب العالمية الثانية » .

أما ما تبقى من فترات العصر الحديث - منذ الحرب العالمية الثانية إلى اليوم - فأرجو أن أوفق إلى إنجاز دراسة عنها قريباً إن شاء الله .

والله الموفق . ومنه يستمد العون .

المؤلف

تمهيد

الحالة الثقافية والادبية قبل العصر الحديث

كانت القرون الثلاثة التي سيطر فيها الحكم التركي على مصر ، قد عملت عملها في إغماض العيون ، وتكبييل العقول ، وعقل الإرادات ، وعقد الألسنة . فقد فرض الأتراك على البلاد نوعاً من الاحتلال هو في حقيقته محاولة لقتل البلاد مادياً وأدبياً . وذلك أن احتلالهم قد عمل على امتصاص كل خيرات الشعب ، ومصادرة جميع موارده ، وسجن أروع قدراته ، وتعويق أعظم ملكاته . وفي سبيل تنفيذ ذلك قد نقل الأتراك من مصر - أول احتلالهم - كثيراً من العلماء والفنانين ، وعديداً من الكتب والنقائس (١) ، ثم تتركوا الدواوين ، وجعلوا أهم الرياضات والأعمال الإدارية في أيدي الأتراك وأذنابهم من المماليك ، ثم أكثروا من فرض الضرائب ، وأهملوا كل إصلاح ، ولم يوجهوا أية رعاية إلى التعليم ؛ حتى لقد أغلقت المدارس بل هدمت وانتهت (٢) . وكانت النتيجة أن انطلقت شعلة الحياة العلمية في البلاد ، إلا وميضاً ينبعث من الأزهر ، الذي ظل الملاذ لما بقي من علوم الدين واللغة ، وإن كان يعاني في تلك الآونة كثيراً من الجمود ، ككل مظاهر الحياة في ذلك العهد المظلم (٣) . . كذلك تعطلت الحركة الأدبية بل تحجرت ، وانحرفت اللغة العربية بل فسدت ؛ فكثرت فيها التركي

(١) انظر : بدائع الزهور لابن إياس ، وتاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي

ج ١ ص ٤٢ - ٤٣ ..

(٢) انظر : تاريخ الحركة القومية للرافعي ج ١ والخطة التوفيقية لعمل مبارك ج ١ ص ٨٧ .

(٣) كانت قد نسيت العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية ، بل أهمل كل تطوير أو ابتكار في الدراسات اللغوية والشرعية ، وأصبح كل النشاط تردداً للقديم البالي ، ومحاولة من البعض لعمل حواشي وتقريرات ، كما فعل الصبان في جاشيته على الأشموني ، وإليزيدي في تاج العروس .

والعامى ، وحادت عن قواعد الإعراب ، وابتعدت عن سلامة التركيب العربى الأصيل^(١) .

ومن هنا أصبح الأدب فى حالة من السقم تقارب الموت . فكأنبت تمثله نماذج نثرية وشعرية هزلية ، ليس وراعها أى صدق لإحساس أو فنية تعبير ، بل ليس وراعها حتى تقليد لتلك النماذج الرائعة ، من أدبنا فى عصور الازدهار ، وإنما هى نماذج شاحبة مفتعلة غالباً ، تغطى ركائزها فى أكثر الأحيان ألوان من البديع ، كثيراً ما تبدو كأكفان ذات ألوان وتطاريز ، تلف أجداناً وعظاماً نخرة .

وقد كان أغلب النتاج الأدبى لتلك الفترة ، يدور حول الأمداح النبوية والأمور الإخوانية ، والمرائى الباردة ، والمواظ المباشرة ، وتسجيل بعض الأحداث فى لغة سقيمة . على أن الروح المصرية وبعض مضامها الفنية ، كانت تلوح فى بعض النماذج الفصحى حيناً ، وتنفس عن نفسها عن طريق الأدب الشعبى أحياناً . وكان هذا الأدب الشعبى ممثلاً فى الموال ، والأغنية ، والسيرة الشعبية ، التى كان منها الدينى « كسيرة السيد البدوى » أو « سيرة سيدى إبراهيم الدسوقى » أو « قصة سيدنا على ورأس الغول » ، كما كان منها التاريخى البطولى مثل « أبى زيد الهلالى » و « عنترة » و « الظاهر بيبرس » و « سيف بن ذى يزن » . بل غلب هذا الاتجاه حتى أصبح لقب الشاعر يطلق عادة على شاعر الربابة ، الذى يقص تلك الأشعار على الناس فى المقاهى والمحافل . وهذا يؤكد أن الروح الفنية عاشت كامنة فى ضمير الشعب ، تنتظر الجو الملائم للانطلاق الرائع .

ويكفى لتصور المستوى العلمى ، وما بلغه من تخلف حينذاك ، أن نقرأ ما حكاه الجبرتى عن دهشته البالغة هو وبعض إخوانه ، خلال زيارتهم

(١) اقرأ على سبيل المثال : بدائع الزهور وعجائب الدهور لابن إياس ، وعجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى ؛ فالأول يمثل صدر العصر التركى ، والثانى يمثل آخره ، وكلاهما يكتب بلغة تبعد كثيراً عن الاستقامة ، مما يصور فساد اللغة طيلة هذا العهد المظلم .

لمعمل علمي من معامل الفرنسيين ، وحضورهم بعض التجارب هناك . فقد تحدث الجبرتي عن ذلك كله وكأنه يتحدث عن عمل من أعمال السحر . . يقول الجبرتي في حديثه عن المعمل وبعض التجارب العلمية التي كان يجريها الفرنسيون : « . . . وأفردوا مكاناً في بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوي . ومن غريب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك ، أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوعة فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً في كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماء ، وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس ، وصار حجراً أصفر ، قلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً ياقوتياً ، ثم أخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القربانة ، انزعجتنا منه فضحكوا منا . . . وهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ، ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » (١) .

كذلك يكفي لتصور المستوى اللغوي أن نقرأ بعض ما كتبه ابن إياس (٢) أو الجبرتي ، وإن كان الجبرتي يمتاز بكثير من الروح المصرية ذات الومضات الفنية ، التي تلوح أحياناً من خلال التهافت اللغوي . ومن ذلك قوله متحدثاً عن بعض الولاة : « ولما اتفق له أن بعض التجار أراد الحجج ، فجمع ما عنده من الذهبيات والفضيات واللؤلؤ والجواهر ومصاغ حريمه ، ووضعه في صندوق وأودعه عند صاحب له بسوق مرجوش ، يسمى الخواجا على الفيومي ، بموجب قائمة أخذها معه مع مفتاح الصندوق ، وسافر إلى الحجاز ، وجاور هناك سنة ،

(١) انظر : عجائب الآثار للجبرتي ج ١ ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) لابن إياس كتابة تقرب من العامية أحياناً ، مثل قوله عن ثورة بعض الخند « فصاروا يسبوا ملك الأمراء سباً فاحشاً وكان سبب ذلك أنه كان لهم ثلاثة أشهر جامكية منكسرة ، فنفق عليهم شهرين وتأخر لهم شهراً واحداً فقالوا ما تسافر حتى ينفق علينا الشهر المنكسر ، وإلا نزلنا نهبنا المدينة وشوشتنا على الناس » ، انظر : بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٠٢ .

ورجع مع الحجاج ، وحضر إليه أجباه وأصحابه للسلام عليه ، وانتظر صاحبه الحاج على الفيومي فلم يأت ، فسأل عنه فقيل له : إنه طيب بخير ، فأخذ شيئاً من التمر واللبان والليف ووضع في منديل ، وذهب إليه ودخل عليه ووضع بين يديه ذلك المنديل ، فقال له : من أنت ، فأني لا أعرفك قبل اليوم حتى تهاديني ؟ فقال أنا فلان صاحب الصندوق الأمانة ، فجدد معرفته وأنكر ذلك بالكلية ، ولم يكن بينه وبين بينة تشهد بذلك ، فطار عقل الجوهري ، وتجر في أمره ، وضاق صدره ، فأخبر بعض أصحابه ، فقال له : اذهب إلى كحك محمد أوده باشه ، فذهب إليه وأخبره بالقصة ، فأمره أن يدخل إلى المكان الداخِل ولا يأتي حتى يطلبه ، وأرسل إلى الفيومي ، فلما حضر إليه بشّر في وجهه ورحب به وآتسه بالكلام الحلو ، ورأى في يده سبحة مرجان فأخذها من يده يقلبها ويلعب بها ثم قام كأنه يزبل ضرورة وأعطائها لخادمه وقال له : خذ خادم الخواجا صحبتك ، واترك دابته هنا عند بعض الخدم ، واذهب صحبة الخادم إلى بيته ، وقف عند باب الحرم وأعطهم السبحة أمانة ، وقل لهم : إنه اعترف بالصندوق الأمانة . فلما رأوا الأمانة والخادم ، لم يشكوا في صحة ذلك . وعندما رجع كحك محمد إلى مجلسه ، قال للخواجا : بلغني أن رجلا جواهرجي أودع عندك صندوقاً أمانة ثم طلبه فأنكرته ، فقال : لا وحياء رأسك ، ليس له أصل ، وكأني اشتبهت عليه ، أو أنه خرفان وذهلان ، ولا أعرفه قبل ذلك ولا يعرفني ، ثم سكتوا ، وإذا بتابع الأوده باشه والخادم داخِلين بالصندوق على حمار فوضعه بين أيديهما ، فانتقع وجه الفيومي واصفر لونه ، فطلب الأوده باشه صاحب الصندوق ، فحضر فقال له : هذا صندوقك ؟ قال : نعم ، قال له : عندك قائمة بما فيه ؟ قال : معي ، وأخرجها من جيبه مع المفتاح ، فتناولها الكاتب وفتحها الصندوق ، وقابلوا ما فيه على موجب القائمة ، فوجدت بالتأم ، فقال له : خذ متاعك واذهب . ثم التفت إلى الخواجا الفيومي - وهو ميت في جملده ينتظر ما يفعل به - فقال له : صاحب الأمانة أخذها ، إيش جاوسك ؟

فقام . ينفض غبار الموت وذهب ^(١) .

وأخيراً يكفي لتصوير حال الشعر وما منى به - في الأعم الأغلب - من هزال وتستر وراء بعض المحسنات ، أن نقرأ مثل هذين البيتين لبعض الشعراء في وفاء النيل :

النيل في مبرز أوفى في توت حادى وعاشر
والناس قد أرَّحوه لله جبر الخواطر ^(٢)

فالشاعر ليس عنده شيء يقوله إلا التأريخ للعام الذى أوفى فيه النيل ، وكان عام ١١١٧ هـ . وهو ما أجهد الشاعر نفسه - وأجهدنا معه - ليرمز إليه بحروف الشطر الأخير من البيتين ^(٣) .

على أن بعض نماذج الشعر كانت تخلو من المحسنات التى فى مقدمتها التأريخ ، وتأتى مجرد سرد بجانب لأبسط مقومات الشعر ، بل غير سالم من الانحراف اللغوى . وإن اشتمل أحياناً على الروح المصرى اللطيف . ومن ذلك قول الشيخ حسن البدوى :

كنّ جارَ كلبٍ ، وجارِ الشَّرَّةِ اجتنبِ
ولو أنَّا لك من أمٍ يبرى وأبِ

(١) انظر : عجائب الآثار للجبرق ج ١ ص ٩٧ .

(٢) انظر : عجائب الآثار للجبرق ج ١ ص ٣٠ .

(٣) لكل حرف من الحروف الهجائية رقم يقابله ؛ فالشاعر يأتى بكلمات ذات حروف يودى حاصل جسمها إلى الرقم المطلوب . والحروف تقابل بالأرقام هكذا :

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ى	ك	ل	م	ن	س	ع
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠
ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ				
٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠				

وعلى هذا تكون حروف كلمات الشطر الأخير مقابلة بـ ٦٥ + ٢٠٥ + ٨٤٧ والمجموع

ما جارُ كلبِ شكَا يوماً بوائقه
 إذا شكَا غيرهُ مِن مصمةِ الوصب
 وجانبِ الدارِ إن ضاقت مرافقها
 والمرأةَ السوءَ ، لو معروفةِ النسب
 ومركباً شرسِ الأخلاقِ لا سيماً
 إن كان ذا قِصرٍ أو أترِ الذنبِ
 أو كان ذا بَطْمٍ سَتِيرٍ ، والعمائمَ ما
 تفاحشت كبيراً تبدو كما القُبب (١)

(١) انظر : عجائب الآثار ج ١ ص ٧٥ .